الفكر في الحضارة الهندية القديمة

البوذية: حكمة جمعت بين الدين والفلسفة (تابع)

بوذا: مولده، نشأته واهتداءه إلى طريق الحكمة:

ولد بوذا Bouddha أو غوتاما بوذا (ويعني اليقظ) في حدود النيبال سنة 560 ق م من أسرة حاكمة حيث كان أبوه رئيس امارة ساكيا. في البداية عاش حياة ترف وشهوات بفضل ما وفره له أبوه الذي كان حريصا على يحيا ابنه حياة سعيدة وسهلة، اغدق عليه بكل ما يجذب الشباب من ملذات وشهوات ومال ونساء. ولكن بعد مدة تخلى عن هذه حياة الملذات والشهوات وتخلى عن خيرات أبيه وقرر أن يحيا حياة تقشف وزهد. معتقدا أن مصدر الآلام التي يحياها الإنسان إنما تعود إلى الحياة المادية التي تستسلم للشهوات والملذات، وآمن أن التحرر من هذا السجن المادي لا يكون إلا من خلال التخلص من كل الشهوات والملذات والاستسلام لحياة الزهد والتقشف. هذا لأنه آمن أن الملذات تحجب النفس عن رؤية الحق والحقيقة، ومنه فإن السبيل إلى تحقيق الحرية من سجن الملذات وبلوغ الحقيقة هو التحرر الكلي من الحياة المادية.

وبالفعل عمل على تحقيق هذه الغاية حين ترك حياة المُلك والترف إلى حياة الغابات والوحشة، واتخذ أحد الأشجار الكبيرة مقره وبدأ يحاسب نفسه على ما قدمه وفعله وبقي على تلك الحالة دون فعل. وذات يوم وهو في حالة التأمل شعر أن هناك معرفة انقذفت إلى ذهنه دفعت واحدة، وتوصل إلى أن مهمته لا تكمن فقط في حياة التنسك والعزلة والزهد وإنما أيضا تبليغ رسالته ونشرها بين الناس، فبدأ مهمة التبشير في سن 36 سنة وقد كان له العديد من المعتنقين والمؤمنين، وبقي طيلة حياته مبشرا بديانته وتعاليمها إلى أن توفي في سنة 480 ق م.

طريق اهتداء بوذا:

هناك اسطورتان ترويان طريق اهتدائه، فأما الأولى فتستند إلى قصة قديمة متداولة في زمن بوذا تقول أن انقاذ الانسانية سيكون على يد شاب حسن الخلق والأخلاق يتربى في العز والنعيم ويحى حياة كلها ملذات وشهوات ثم يتخلى عنها وينتقل إلى حياة الزهد ويغرق في حالة التأمل والمعرفة بغية اكتشاف طريق لإنقاذ الانسانية من الشرور والآلام. وكان بوذا على علم بهذه الأسطورة فرأى أنها تتفق مع نشأته فآمن أنه هو هذا الشاب المخلص فحاول تجسيدها ولعب دروها.

أما الأسطورة الثانية فهي تروي لنا أن بوذا وهو يتتره في عربة تسوقها الجياد رأى في مناسبات مختلفة شيخا مسنا، ومريضا هزيلا، وميتا فتيقن بعدما أن أكد له ذلك سائق العربة، أن مصيره لا محالة سيؤول إلى مصائر هؤلاء رغم حصانته وماله وعظمة ملك أبيه. حينها تيقن غوتاما أن الحياة كلها آلام، ولكن أمن أيضا أن هناك دائما مخرج منها وحل لها. وذلك لا يتحقق إلا من خلال وسيلتين هما: أولا التخلي عن الحياة المادية وشهواتها والثانية وهي المعرفة. فركن إلى الزهد من كل شيء مادي ومن كل شهوة أو لذة ومن ثم بدأ يستغرق في التأمل والتفكر في الكون إلى أن غمرته معرفة كلية.

تعاليمه:

لم يترك بوذا نصوصا مدونة بل آمن أن أتباعه هم الذين سيبلغون رسالته. ولكن مع مرور الزمن ظهرت اختلافات حول تعاليم بوذا واشتدت النقاشات والجدالات حول صحيحها وخطئها، وكانت تعقد جمعيات لأتباعه للفصل فيها. ولكن في القرن الثالث قبل الميلاد انقسم البوذيون إلى سكان الشمال وسكان الجنوب وجمعت كل طائفة تعاليم بوذا وحياته والقصص والأساطير التي حيكت حوله في كتاب تسمى ب: السيلال الثلاث، يضم الجزء الأول منه قوام النظام، والثاني يتضمن مواعظ تعود إلى بوذا، وأما الجزء الثالث فيضم عرضا لمذهب بوذا. وكانت لغة هذا الكتاب هي البالي التي كان يتكلمها سكان الشمال الشرقي للهند. ولكن لم يتم صون هذا الكتب من التعديلات والاضافات، عكس كتب الفيدا التي وضعت حولها سياجات صارمة حمته من التبديل.

في الفرق بين البوذية والبراهماتية:

اختلفت البوذية عن البراهماتية في عديد من الأفكار والمعتقدات مثل أن الوحي يأتي من الداخل أي من ذات الإنسان وليس من الخارج أي من الآلهة، كما أن آمنت البوذية أن مهمتها هو انقاد الانسانية ككل وليس من يعتنقون البوذية فقط عكس البراهماتية التي تعتقد أن الخلاص يكون فقط لمعتقيها، وإذا كانت البراهماتية تؤمن بالطبقية بل هي التي أسستها في المجتمع الهندي القديم ودافعت عنها، فإن البوذية جاءت لتضع حدا لهذه الطبقية.

لم يدعو بوذا إلى دين طقوسي كما فعل البراهماتيون ولا إلى إله كما كانت تصوره المعتقدات الأخرى وإنما كان يؤمن بوجود روح تسود العالم. لبوذا أباع كثر ولكن اتباعه على الرغم من ايمانهم به وبتعاليمه إلا أنهم كانوا معتدلين في حياتهم أكانوا منعزلين وزهاد ولكن لم ينقطعوا عن الحياة كلية كما فعل البراهماتيون.

كان بوذا ضد الملكية فقد كان ينهى أتباعه على الادخار والاكتفاء فقط بقوت يومهم، كما نهى أتباعه أكل اللحوم والأسماك ودعاهم إلى التقيد بأنواع معينة من الاطعمة والأشربة والثياب.

فلسفة الألم في البوذية:

تعتبر البوذية أن الحياة كلها ألم وإن كان هناك شيء من السرور فإنه سرور سرعان ما يزول وينقلب إلى ألم، ولا سبيل للتخلص من هذا الألم لأن الإنسان محكوم عليه بقانون الكارما. وبعد طول تأمل اهتدى بوذا إلى أن أربعة حقائق تتعلق بالألم وهي: الأولى أن الحياة كلها ألم، ثانيا الألم له أصل ومنشأ وعلينا اكتشاف مصدره، وثالثا: اكتشاف أصل الألم يقود إلى اكتشاف الطريق للقضاء عليه، ورابعا: أخذ السبيل الذي يمكننا من القضاء على الألم. تمثل الحقائق الثلاث الأولى الجانب النظري أما الحقيقة الأخيرة فهي تمثل الجانب التطبيقي.

حينما نتأمل في الحقائق الثلاث نتوصل إلى أن بداية الألم هو الوجود فما أن يوجد الإنسان تبدأ معاناته، وسبب هذا الألم هو الجهل بمصدره. ومنه فإن طريق التحرر والتخلص من الألم يكون من خلال القضاء على الجهل الذي ينسينا أن الحياة هي نفسها الألم، ولا يتحقق ذلك إلا بالتخلص من هذا الجهل، وبداية التحرر منه هو اتخاذ طريق المعرفة أو طريق الفضيلة. وهذا الطريق يحتوي على مجموعة من الفضائل منها السلبية والمتمثلة في: عدم قتل أي كائن حي، عدم السرقة، عدم الرغبة في النساء، اجتناب الكذب واجتناب السكر، أما الفضائل الايجابية فتتمثل في: التأمل والحكمة. وهذا الطريق الذي وضعه بوذا كما هو واضح لا يعتمد على قوى خارجية مثل العبادات وطلب المعونة من الآلهة وإنما هو اجتهاد ذاتي يتمثل في مكابدة النفس للشهوات وقمعها ونهيها على الظلم والعنف والاعتداء، وإلى جانب هذه المكابدة يدعونا بوذا إلى التأمل والتفكير وتبصر الحياة.

بعد أن يسلك الإنسان هذا الطريق ويبلغ مبتغاه حينها يصل إلى مرحلة **النيرفانا**[1] التي تعني مرحلة اطفاء كل الشهوات والتخلص والتحرر منها. والنيرفانا هي حقيقة مطلقة لا تتغير، لأنها إن كانت متغيرة ونسبية فهذا يعني أنها لا تختلف عن حالات الزهد والابتعاد عن الملذات والشهوات التي يمر بها الإنسان في حياته. ولما كانت النيرفانا وضع مطلق فإنها لا تتحقق إلا بعد موت الإنسان فبوذا نفسه لم يبلغها إلا بعد موته. ولكن هناك طائفة من اتباعه جاءوا

[1] النيرفانا تعني السعادة الروحية المطلقة. وهي امتداد لفكرة الكارما، فالإنسان في التصور البوذي والهندوسي يصل إلى مرحلة النيرفانا حينما يتحرر من كل الشهوات واللذات حتى يصل إلى مرحلة اللارغبة، إنها تعني الاطفاء الكلي والتام لنار الرغبة والشهوات في الانسان. والنيرفانا هي حالة مطلقة ومستقرة وليس آنية أو مرحلية لهذا فهي تختلف عن حالات الزهد.

بعده ذهبوا إلى أنه يمكن بلوغ النيرفانا حتى والانسان على قيد الحياة، فكل إنسان يصل إلى مرحلة الاطفاء الكلي للهيب الشهوات حينها يصل إلى النيرفانا.

البوذية بعد بوذا:

بعد وفاة بوذا طرأت على مذهبة عدة تعديلات وتطورات. وهذه التعديلات والتطورات شكلت ما يسمى بالبوذية المتأخرة التي مثلها أتباع بوذا، في مقابل البوذية الأولى التي جاء بها غوتاما بوذا، تعرف البوذية المتأخرة باسم: الماهايانية. من التطورات التي شهدتها البوذية هي أنها لم تعد تؤمن بوجود بوذا واحد فقط وإنما ببوذات متعددة يظهرون من جيل إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى في الكون، إلا أن هذه الشخصيات المتعددة هي تحل لبوذا الأول الذي ذهب بعض البوذيين المتأخرين إلى حد تأليهه، حيث ذهبوا إلى أن بوذا الحقيقي لم يكن سوى تجسيدا لكائن سماوي على هيئة بشر. ومع هذا التحول تحولت البوذية إلى دين شعبي يؤمن به العديد من البشر. وطرأت بذلك عدة تحولات في تعاليم بوذا الحقيقية حيث لم يعد يعتقد البوذيين المتأخرون أن الخلاص يتحقق عن طريق ترك العالم والزهد والتأمل وإنما يكفي لتحقيق الخلاص من العالم الإيمان الحقيقي والصادق ببوذا وبألوهيته.

لقد أصبحت البوذية المتأخرة تقوم على فكرة الشفقة، والتي تختلف عن تعاليم بوذا الأول، فهذا الأخير كان يدعو إلى تحقيق الخلاص الفردي من خلال السعي إلى بلوغ مرحلة النيرفانا، إلا أن البوذية المتأخرة تعتقد أن الإنسان البوذي ما أن يصل إلى مرتبة النيرفانا فإنه يتنازل عنها ويعود إلى العالم من أجل مساعدة الآخرين على الخلاص والتحرر شفقة عليهم. وسنقدم بعض النصوص التي تؤكد على فكرة الشفقة:

" طالما تألمت الكائنات لن يكون ثمة إمكانية لأن يفرح أولئك الذين يتمتعون بقلب رحيم".

" ليتني أستطيع أن أقود الكائنات إلى مدينة النيرفانا"، ليتني بما أنجزته من خير أن اساهم في تخفيف آلام كل الكائنات".

" إنني لا أهتم بخلاصي الشخصي فحسب. فيجب أن أخرج كل الكائنات من نهر التناسخات، وأن أحمل على ظهري عبء ألم كل الكائنات. وطالما أن الأمر يتعلق بي فإنني أريد، في كل الحيوات السيئة التي يمكن أن تتحقق في كل مناطق الأرض، أن أتذوق كل الآلام حتى الثمالا... وأرضى أن أعيش في كل أشكال الحياة السيئة ملايين الأحقاب العالمية...والحقيقة أنه يحسن أن أتألم وحدي بدلا من أن تمر كل الكائنات في حيوات سيئة ليس لها عدد".

مع مرور الزمن بدأت البوذية تفقد أتبعها شيئا فشيئا في بلادها الأصلية الهند، وبدأت بالانتشار شيئا فشئيا في بلاد الصين وما جاورها. فمع بداية القرن التاسع للميلاد بدأت البوذية تتراجع في الهند بشكل مستمر أصبحت بالكاد شيء يذكر في حدود القرن السابع عشر. وسبب تراجع البوذية في الهند لا يعود إلى اضطهاد حل بها وإنما إلى اعادة احياء الديانة البراهماتية من طرف معلمين جدد. فالمعتقدات البوذية لم تعد تستهوي الإيمان الشعبي وهذا لأن بوذا كان ينكر بشكل كلي من أجل تحقيق الخلاص حتى أنه كان ينهى أتباعه عن الزواج وهو الأمر الذي لم يستطع الناس قبوله. وفي هذا الأمر كانت البراهماتية أكثر انفتاحا من البوذية حيث لم تنفي وتنكر الزواج بل اعتبرت أن الزوج الصالح والخادم لأسرته بإخلاص يمكن أن يحقق الخلاص. كما أن البوذية أعلنت حربها على كتب الفيدا التي كانت مقدسة عند الهنديين وهذا ما جعل العشب ينفر منها. ومع الدخول الاسلامي إلى الهند بين 1175 – 1340 فإن البوذية لم تستطع أن تقنع معتنقيها بالتشبث بها فراح العديد منهم يؤمن بالديانة الجديدة (الاسلام).

قلنا أن البوذية انتقلت من الهند إلى الصين وأصبح لها معتنقون كثر، ويرجع الدارسون أول اكتشاف صيني للبوذية إلى القرن الأول قبل الميلاد ومع مرو الوقت ظهرت عدة رحلات من الصين إلى الهند قصد تعلم الديانة البوذية حيث قاموا بترجمة العديد من كتبها ونقلها إلى الصين. ويعود سبب اهتمام الصينيين بالبوذية إلى جانبها الأخلاقي الذي كان يقوم على قيم الرحمة والشفقة.

وفي عام 1050 كتب أحد البوذيين الصينين كتابا عنونه ب "أساس الدين" يعتبر فيه بوذا وكونفوشيون ولاوتسو كلهم بشروا بدين واحد. وهذا الطرح يبين مدى تعلق الصينيين بالديانة البوذية واعتبرها متساوية في الأصل مع الكونفوشيوسية والطاوية.

لم تنتشر الديانة البوذية في الصين فقط وإنما امتدت إلى العديد من الدول المجاورة للصين مثل اليابان وكوريا وغيرها من المناطق الآسيوية الأخرى.